الفصل الثالث

الكنايات النبوية

تمهيد:

ترجع الأساليب البيانية ، ومنها الكناية ، إلى ظاهرة نفسية هامة في الحياة العقلية ، وهي ظاهرة : «تداعي المعاني» والتلازم بين المكني والمكني عنه ، عامل من عوامل هذا التداعي في أذهان الناس ، وإن كان يأتي في صور مختلفة باختلاف تجاربهم ، ومعارفهم ومواضع اهتمامهم ، وأحوالهم ، فالكناية رمز له مدلول خاص ، يعطي التعبير اتساعا ويبعث على التفكير ، وإعمال الذهن وقد يكون وسيلة للارتفاع بالأساليب عن التصريح بما لا تحث ذكره ، مع حسن التصوير ، وتقوية المعنى [1] .

وما عده المحدثون تداعي المعاني ، يدعى لدى الأقدمين بالتلازم الذهني ، فمبنى الكناية كما صححه المتأخرون : الانتقال من الملزوم إلى اللازم ، ووجود الملزوم يقتضي وجود اللازم ، لامتناع انفكاك الملزوم عن اللازم ، وعلى ذلك فالكناية دعوى الشيء ببينة وبرهان ، ومع الإفصاح مدعى لا يبينه [2] .

ولقد كانت الكناية مفتاحا للرمزية ، كمذهب أدبي يحدث ، من حيث تصوير الحقائق والمعاني بشيء من الخفاء ، وفي هذا الخفاء يكمن السحر ، حيث لا يقطع على الخيال رحلته في عالم المعاني [3] .

---

(١) انظر : الأصول الفنية للأدب ، الأستاذ عبد الحميد حسن ص ١٨٢ ، وتطور الأساليب النثرية ١/٧٣ .

(٢) راجع : مفتاح العلوم للسكاكي ص ١٩٤ ، والمطول ص ٤٠٨-٤١٣ .

(٣) انظر : دراسات في علم النفس الأدبي ص ٤٦ .

ونلتقي مع الكنايات النبوية لنرى ، كيف جاءت على نسق طبعي لا كلفة فيه وكيف سبقت إلى لقطات نافذة ، جمعت بين جمال التصوير ، وتدعيم المعنى ، مع الإيجاز ، واللمح دون تبسط في الإيضاح ، واختيار الألفاظ الموحية الدالة ، وأود أن أنبه إلى :

إن البيان النبوي ما اختار الكناية لأنها كناية ، أو التصريح لأنه تصريح بل هنا وضع خاص اقتضاه المقام ، وكان التصريح فيه أبلغ ، فأتى به ترهيبا أو تشريعا أو الكناية أوقع ، فأتى بها تنفيرا ، من قولهم لكل مقام مقال .

وأخرى أنبه إليها ، ذلك أنني وجدت ما كان كناية عن صفة أكثر من غيره موصوفا أو نسبة ، ولعل ذلك لأن المرء مجموع صفات تغييره بتغييرها ، وكان الهدي المحمدي ينفث في الإنسان روحا ، ويبدله خلقا آخر ، فلا جرم أن الكنايات عن صفات أكثر وأغزر وأبرز ، ويمكن تنويع الكنايات عن صفة إلى نوعين ، كناية عن صفة محمودة وأخرى عن صفة غير مرضية .

١- الكناية عن صفة :

أ- الكناية عن صفة محمودة :

ـ من تسبيح الرسول ﷺ : «سمع الله لمن حمده ـ ربنا ولك الحمد ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شئ بعد»[(١)].

ـ قال رسول الله ﷺ : من السبعة المرضى عنهم «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»[(٢)].

ـ «اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»[(٣)].

ـ «جعل رزقي تحت ظل رمحي»[(٤)].

---

(١) التاج الجامع ١/١٩١ .
(٢) المرجع السابق ١/٢٣١ .
(٣) المرجع السابق ٤/٣٢٩ .
(٤) المرجع السابق ٤/٣٦٠ .

- قوله لأنس ﷺ «ياذا الأذنين»[1].

- «أفضل الأعمال الحال المرتحل ، قالوا : وما الحال المرتحل : قال : أن تختم القرآن ثم تفتحه»[2].

- من حديث أم زرع «له إبل قليلات المسارح ، كثيرات المبارك ، إذا سمعن صوت المزاهر أيقن أنهن هوالك»[3].

منه أنها تحت ظل سلاحه ، والكناية تغني عن كثير من الإيضاح حول قرب الجنة وسرعة الشهيد إليها ، وما أبرعها أكدت القرب وخلصت الإيجاز ، وأبلغت في الترغيب وأثرت في القلوب ، وهذا التلازم وشدة القرب والمبالغة فيه بإيحاءاته المتشعبة نجده في الأحاديث «جعل رزقي تحت ظل رمحي» ، «والجنة تحت أقدام الأمهات»[4] ، «والخيل معقودة في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغنم»[5].

حسن الاستماع : «ياذا الأذنين» مداعبة الرسول ﷺ بالحق لأنس تلميذه وخادمه ، والكناية تعني شدة الانتباه ، وعظيم الحرص على العلم واستماعه مع دلالتها على الفطنة والذكاء ، ودعوتها إلى كمال التعلم ، ومهارة التلمذه وحسن الطاعة .

دوام التلاوة للقرآن : «الحال المرتحل» ، الفاتح المختتم ، دليل على مداومة التلاوة مع التصوير البارع ، إن القارئ في سفر شائق ، لا يحفل في منزل إلا ريثما يرتحل ، وهى كناية لها ظلالها : أليس المسافر يكتشف الجديد دائما ، يعلم نفسه ، ويهذب خبرته ، ويمتع فؤاده وحواسه ، هو في جديد لا يمل كذلك قارئ القرآن المديم قراءته .

---

(١) التاج الجامع ٥/٥٦ .
(٢) كنايات الجرجاني ٩ .
(٣) التاج الجامع ٢/٣١٨ .
(٤) المرجع السابق ٤/٣٦٠ .
(٥) المرجع السابق ٤/٣٤٩ .

فضل الصيام : عليك بالصيام فإنه لا مثل له ، والكناية في نفس المثل ، كأن الصيام تفرد بميزات كبار ، وثواب جزيل ، فهو ضرب وحده ، لا مثيل له ، ونفى المثل عن الشيء دليل تفوقه وفضله ، دعوة إليه ، وترغيبا فيه .

عزيمة قوية : «لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتي هذه» : لقد أثار هذا الحديث البلاغيين حقا ، وقل من حلله ، قال ابن الأثير : «هذا الحديث من جوامع الكلم ، وهو من الفصاحة والبلاغة على غاية لا ينتهي إليها وصف واصف»[1].

وقال العلوي : «وهذا الحديث قد جمع بين المحاسن ، والإحاطة في بلاغة المعاني وفصاحة الألفاظ ، ما لا يقدر على وصفه قائل ، ولا يستوي على حصر لطائفه مجيب ولا سائل»[2].

وإذا كان هذا الضرب من النقد لا يفيد في كشف الأسرار الجمالية ، فإننا نجد عند الرافعي ما يغني على طريقته الأدبية التحليلية دون تسمية لون بلاغي ، قال : «فتأمل قوله عليه الصلاة والسلام» «حتى تنفرد سالفتي هذه» ، وكيف تصور معنى الانفراد الذي لا يستوحش منه ، لأن الثقة فيه بالله ، والقلة التي لا يخاف منها لأن الكثرة فيها من الله ، والاستماتة التي لا تردد معها لأن الأمر فيها إلى الله ، وانظر كيف يصف العزيمة بالحذاء ، وكيف تفرع بالوعيد والتهديد ، وكيف تغني في جواب القوم ما لا تغنيه الرسائل الطوال ، وإنها لكلمة بمعركة[3]. دين الله ، والعزم الثائر على إبلاغ الرسالة حتى الموت ، وقد وفر بناء العبارة ما نحس منها : فجاءت لقطة «تنفرد» بمدلولها الخاطف ، لا يغني عنها تقتطع أو تظهر ، مناسبة للتفرد بالرسالة ، والتفرد بالتهديد والعزم على التضحية ، وقد جاءت بين إشارتين : أمري هذا وسالفتي هذه ،

---

(١) المثل السائر ٣٤٣/٢ .
(٢) الطراز ١٢٣/٢ .
(٣) إعجاز القرآن ، الرافعي ٣٧٢ .

استحضاراً وتقوية ، والكناية هنا : دعوة بدليلها ، ونتيجة ببرهانها ، تصويرا وإنذارا وإنها لكلمة بمعركة حقا .

الرقة والخوف : «قلوبهم مثل أفئدة الطير» ، كناية عن الرقة والخوف ، فهى قلوب ، كلما ذكرت ربها ، وجلت واضطربت ، وتمثلت جلاله وعظمته ، فمادت وخشعت ، فكان جزاؤهم دخول الجنة ، لأن الخائف من الله دائمًا مؤد لرسالته الإنسانية ، ولقد جاءت كناية في حديث الرؤيا «وهى على رجل طائر ما لم يتحدث بها فإذا تحدث بها سقطت»[1] ، والكناية هنا «على رجل طائر» تعبر عن الاضطراب وعدم الاستقرار ، قال ابن قتيبة «والعرب يقولون للشيء إذا لم يستقر هو على رجل طائر ، وبين مخاليب طائر ، وعلى قرن ظبي ، يريدون أنه لا يطمئن ولا يقف»[2]

الامتثال والطاعة : «لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة بالسجود لزوجها» وهو حديث يتوج ما ورد في الدعوة إلى طاعة المرأة زوجها ، ثم هو كناية عن شدة الطاعة ، وعظيم الانقياد ، مع الحب والإخلاص ، والسجود أدل على تمام الخضوع والتسليم وكمال الانقياد ؛ ولذا خص بعبادة الله وحده ولو حدث بين العباد لكانت الزوجة أحق ، وهو درس في تعليم حقوق الرجل وتقديره والإخلاص له حتى تسعد الأسرة ويسعد المجتمع .

وبكل ما سبق من كنايات عن صفات طيبة نرد على ابن أبي الإصبع ، حيث تعجل فجعل الكناية النبوية «أن يعبر المتكلم عن المعنى القبيح ، باللفظ الحسن وعن الفاحش بالطاهر» ، ثم قال : وفي السنة النبوية ما لا يكاد يحصى كقوله ﷺ «لا يضع العصا على كتفه» كناية عن كثرة الضرب ، أو كثرة السفر[3].

---

(١) التاج الجامع ٣٥٦/٤ .

(٢) انظر تأويل مختلف الحديث ص ٤٤٧ ، ٤٤٨ .

(٣) انظر : تحرير التحبير ١٤٤/١ .

كنايات عن صفات غير طيبة :

وهنا نجد الطب النبوي يعالج بالإيحاء النفسي تصويرا ، فلم يفصح عن الصفة ويذكر لازمها لمجرد التنفير بل طلبا للتغيير وإيقافا على أثرها السيئ .

قال رسول الله ﷺ : « إذا مشت أمتى المطيطا ، وخدمها أبناء الملوك ، أبناء فارس والروم سلط شرارها على خيارها »[١].

ـ قالت عائشة رضى الله عنها حسبت من صفية كذا وكذا تعني أنها قصيرة ، فقال عليه الصلاة والسلام ، « لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته »[٢].

ـ « من كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له »[٣].

ـ « ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ، أو يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه »[٤].

ـ « صنفان من أهل النار لم أجدهما ، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها »[٥].

ـ « رغم أنفه (ثلاثا) من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كلاهما ثم لم يدخل الجنة »[٦].

ـ من حديث خلق آدم « فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو ، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقا لا يتمالك »[٧].

---

(١) التاج الجامع ٣٤٤/٥ .
(٢) المرجع السابق ٢٥/٥ .
(٣) المرجع السابق ٢٦٦/٥ .
(٤) المرجع السابق ٥٤٢/٦ .
(٥) المرجع السابق ٢٧٩/٢ .
(٦) المرجع السابق ٤/٥ .
(٧) المرجع السابق ٤٨/٥ .

- «لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب»[1].

- من حديث عدى بن حاتم وآية الصيام «قلت يا رسول الله إني أجعل تحت وسادتي عقالين ، عقال أبيض ، وعقال أسود ، أعرف الليل من النهار ، فقال عليه الصلاة والسلام ، إن وسادك لعريض ، إنما هو الليل والنهار».

قوله ﷺ لعائشة رضي الله عنها حين راجعته في صلاة أبي بكر بالناس «مرى أبا بكر فليصل بالناس ، فإنكن صواحب يوسف»[2].

بهذه الجملة من الأحاديث : صفات عبرت عنها الكناية بذكاء ، ودلت عليها بطريق أقوى .

١- **الترف والكبر** : «إذا مشت أمتى المطيطا ، وخدمها أبناء الملوك» : كنى عن الخيلاء والكبر بهذه المشية لأنها دليلها ، وهي مشية توضح كلمتها بحروفها معنى الرخاوة والتثاقل الذي أورثه الترف والكبر ، ثم إذا وصلت في الغنى إلى ما لا حد له ، وقد عبر بهذه الكناية «خدمها أبناء الملوك» عن ذلك ، فهو غنى فاحش وكبرياء صفتان معنويتان أكدتهما الكناية بإثبات لازمها الحسى مبالغة وإيجازا ، ومقدمة لما يترتب عليها من دمار الأخلاق ، وتسلط الأشرار .

٢- **الغيبة** : «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته» ، وهو تصوير صارخ لشدة النتن وقبح الرائحة بما يخالط البحر مخالطة يتغير بها طعمه وريحه تنفيرا مؤثرا عن صفة الغيبة ، فهى كناية عن صفة لكن المرء يفتنه هذا التعبير : ففيه :

١- تصوير المعنوي «الكلمة» بصورة المرئي المحسوس «يمزج» .

٢- إثبات النتن والقبح - عن طريق الكناية - لهذه الكلمة ، ثم المبالغة إلى درجة تغير ما لا يتغير وهو البحر .

---

(١) التاج الجامع ١٦٢/٥ .

(٢) المرجع السابق ٢٧٠/١ .

٣- أتى بالدليل على المدلول ، وبالبينة على الدعوى تأكيدا .

٤- هذا الإيحاء في الكناية يخلق جوا من النفور والتقزز من هذه الصفة .

٥- أعطت المبالغة والإيجاز فسحة للخيال يذهب في التصور كل مذهب .

حب الدنيا وآثاره : «من كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق عليه شمله»، ثلاث كنايات عن ثلاث صفات ، الأولى سبب في الآخرين :

١- من كانت الدنيا همه : كناية عن حبها والحرص عليها ، فقد جمع بين المعنى ودليله في قوة ذلك أن الهموم إذا صارت هما واحدا ، وشغلا شاغلا انصب على الدنيا ليلا ونهارا ، يقعد المرء ويقيمه فقد بلغ الشغف بالدنيا مداه ، والحرص عليها منتهاه ، وترتب على ذلك نفسيًا :

٢- جعل الله فقره بين عينيه : كناية عن قرب الفقر ، وشدة الفزع منه ، ولا يمكن لأسلوب بياني آخر أن يؤدي ما أدته الكناية هنا من تصوير الرعب الشديد من الإملاق ، فالإنسان ينصب ليغني ، ويبعد عن الفقر ، وكلما قرب الفقر منه أصابه الفزع ، فيجد في طلب اليسار ، لكن ما بالك بالفقر أقرب إليه من يديه ، وبحيث لا يغيب عن ناظريه ، إنه قرب قريب ، فزع غريب لأنه بين عينيه ، وهو أمر ملازمه ، ولا يستطيع منه فرارا ، ثم :

٣- «فرق عليه شمله» ، كناية عن اضطراب مشاعره ، وتوزع أهوائه ، وتشعب قلبه بالمطامع والآمال ، فهذه ثلاث كنايات نصبت أدلتها ، وتدرجت في الصفات النفسية والمبالغة فيها ، وضربت في أفانين التخييل ، تحذيرًا من الدنيا وما يترتب على حبها .

الغباء والبلادة : وفيهما حديثان أولهما مداعبة ، والثاني ذم وترهيب .

١- «إن وسادك لعريض» وهو متعالم بقول الزمخشري «وروى: لعريض القفا» قلت غفل عن البيان ، ولذلك عرض رسول الله ﷺ قفاه ، لأنه مما يستدل به على بلاهة الرجل ، وقلة فطنته ، وأنشدتني بعض البدويات :

عريض القفا ميزانه في شمائله قد انحسر من حب القراريط شاربه[1].

٢- «ألا يوشك رجل شبعان على أريكته».

كناية عن البلادة وقلة الفهم ، وفيه تصوير حسي بديع ، فهنا رجل أكل حتى أتخم وتمتع حتى بطر ، ثم اضطجع على أريكته في كسل وخمول يناقش متسليا أخطر قضايا الدين ، لقد طغى الترف على عقله فلم يبق إلا الغباء والبلادة .

ونلمح مع الذم التهكم بهذا الغر الجهول ، ويقترن في ذهني هذا التصوير الكنائي بتصوير في حديث آخر ، يأتي الرجل السمين العظيم يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة[2]، وإن كانت الكناية هنا عن صفة البوار والخسار وقد أكملت بناء الأسلوب ، مقتصرة على دليل الصفة «لا يزن جناح بعوضة» وهل جناح البعوضة مما يوزن به ، إنه تصوير بالغ في ضياع العمل ، وحين تقرن هذه الخفة المجازية بتلك السمنة والضخامة في الدنيا تبلغ الإثارة مداها والتهكم غايته ، فالصورة يتقابل وجهها مرسومة بريشة صناع ، وبالكناية يتحقق الغرض من الدعوة إلى العمل الصالح حتى لا يكون المرء طبلا أجوف لا عقل له بل كجناح بعوضة تافهة .

الظلم والسفور :

«قوم معهم سياط كأذناب البقر» فقد كنى عن الظلم بإثبات آلته وأداته فهنا ظلم صارخ تمثل في سياط تلهب ظهور الناس تمثيلا حسيًا للتنفير والوعيد ، وكنى بقوله «كاسيات عاريات» عن لبس الشفاف من الأثواب يبدي ويشير دلالة على ضعف الدين ، ويسرن «مائلات مميلات» كناية عن الخلاعة والتبرج ، و «على رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة» كناية عن السفور وإبداء الزينة ، ثم نسب هذه الصفات الرذلة لصنف من النساء جمعه مع الظالمين في أنهما من أهل النار لتحقق نوع من الظلم في كل صنف .

---

(١) الكشاف للزمخشري ١/١٧٥ .

(٢) رياض الصالحين للنووي ص ٥٥ .

ويهمنا ما نقلت الكنايات من دقة التجسيم ورسبت من خالد الصور ما جعلها طريفة في زمن التنافس في الخلاعة .

الطمع البشري : «ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب» .

فهو حريص طماع لا يشبع ، وبرهانه أنه لا يملأ جوفه ، وعينيه إلا التراب وهي كناية مؤثرة تصور النهاية مجسمة أمام الإنسان ليرتدع ويقنع ، ثم فيها الحكم النهائي على ابن آدم بهذا الطمع ، ضعفا بشريا يلازمه حتى الموت .

«عليك بالصيام فإنه لا مثل له»[1].

من قوله ﷺ «فو الذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى ، ولينفذن الله أمره»[2].

«يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير»[3].

«لو كنت آمرا آحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة بالسجود لزوجها»[4].

هذه كنايات عن صفات محمودة ، أفادت المبالغة وقوة الإيحاء وجمال التصوير .

كثرة محبوبة : أحمد الله حمدا كثيرا لا يناله حصر أو عد حمدًا يليق بالمنعم وعظيم آلائه ، إنه حمد يملأ السموات ويملأ ما بينهما ، ويملأ ما لا نعلم مما شاء الله من خلقه ، فالكناية هنا عن الكثرة التي لا حد لها في حمد الله وتمجيده ، ولها ظلان : جلال الله العظيم الذي يستحق كل إجلال : وقوة الإيمان عند النبي ﷺ وصدق معرفته بربه جل وعلا .

إخفاء كريم : «حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» دعوة إلى صدقة الخفاء التي تطفئ غضب الرب ، والخفاء هنا يبلغ حدا مثيرا ، وإذا كان المجاز أعطى قوة الإيحاء وجلال التصوير ، فإن التعبير كله مسوق للكناية مبالغة في

---

(١) التاج الجامع : ٢/٥٠ .
(٢) المثل السائر ٢/٣٤٣ .
(٣) رياض الصالحين ص ٢٣ .
(٤) رياض الصالحين ص ٦٠ ، والتاج الجامع ٢/١٣٤ .

إخفاء الصدقة حدا لا مزيد عليه رحمة بالفقير ، ومراعاة لشعوره ، ثم قهرا للنفس وحربا على الرياء ، ودعوة إلى تنافس خفي بين الموسرين يعم المحتاجين .

قرب الغاية : «الجنة تحت ظلال السيوف» كناية عن قربها ، ودليل على هذا القرب ، فالمقاتل يبذل مهجته في سبيل ربه ، وإنه لحبيب إليه وإن رحمة الله وجنته لقريبة .

التطلع إلى الإمارة : عن الإمارة «فنعمت المرضعة ، وبئست الفاطمة».

قال القاضي أبو العباس الجرجاني «كنى بالمرضعة عن الإمارة ، والفاطمة عن الموت» ، فهنا كنايتان عن الإمارة ، وكنى عنها بالمرضعة تدر لبنها ، وتغذي وليدها ، وتؤويه إلى صدرها فهو في متعة ونعيم ، كذلك الإمارة وما فيها من دنيا ، فجاءت الكناية بالغة من دقة التصوير ولطف التخييل كل مبلغ[1] ، وتعبيره عن الثانية بالموت تسامح ، إنها كناية عن زوال الإمارة بموت أو سواه كما كانت الأولى كناية عن إقبالها ، وهو المفهوم من قول الرضي : «أقام الإمارة في حلاوة أوائلها ، ومرارة أواخرها ، مقام المرضع التي تحسن الرضاع وتسيء الفطام ، ثم يقول : لما في الخارج عنها من طرق السوء وشمات العدو»[2] ، ولا يخفى كيف كان التجوز في خدمة الكناية التي اقتضاها الغرض تأكيدا وتصويرا وإيجازًا تعليمًا وتخويفًا من التهالك على الإمارة .

عقوق الوالدين : «رغم أنفه من أدرك والديه أحدهما أو كلاهما ثم لم يدخل الجنة» أراد رغم أنف العاق ؛ لأنه لا يدخل الجنة ، فأتى بدليل الصفة ولازمها الرادع وهو الحرمان من الجنة ، تأكيدا وترهيبا .

---

(١) كنايات الجرجاني : ص ٩ .

(٢) انظر : المجازات النبوية للشريف الرضي : ص ١٨١ ، ١٨٢ .

الضعف البشري : «فجعل إبليس يطيف به ، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك»

والكناية بلغت من الإيجاز والإعجاز ، فقد جمعت وبينت كل ما ركب في الإنسان من غرائز وطبائع تستذله وتدمره بكلمة واحدة «لا يتمالك» دلالة الضعف والانقياد للغرائز ، وبرهان الذلة والاستسلام إلا من عصم الله .

دهاء النساء :

«إنكن صواحب يوسف» كناية عن الخداع ومخالفة الباطن ، ذلك أن السيدة عائشة رضي الله عنها خافت تشاؤم الناس من صلاة أبي بكر ﷺ بالناس في مرض النبي ﷺ ، وقالت إنه رجل رقيق بَكَّاء ، ولم يكن ذلك بخفي عن نور النبوة ، ثم إن المقام جد كله فهو تشريع للتمهيد لخلافة أبي بكر ، والكناية أيضًا لم تواجه السيدة عائشة بما تكره بل علمتها بطريق مهذبة للصراحة وعدم المخادعة ، فأتى بالتعبير كناية عن ذلك كزليخا أضافت النسوة وأظهرت إكرامهن ، ولكن مرادها أن ينظرن جمال يوسف فيعذرنها في محبته[1] ، ثم هنا إيماء إلى الحب والخطأ والعفو الكريم .

صفوة القول : إن الكناية عن صفة أدت دورها في البيان النبوي ترهيبا أو ترغيبا مع قوة التصوير ، والتجسيم ، ودقة التعبير ، والإيحاء المثير ، تركيزًا في الإيجاز وقوة في التأكيد المدعم بالأغراض النبوية .

الكناية عن موصوف :

قال ﷺ : ١- «كيف أنعم ، وصاحب القرن قد التقم القرن ، واستمع الإذن حتى يؤمر بالنفخ»[2].

---

(١) التاج الجامع ١/٢٧٠ هامش ٩ .

(٢) المرجع السابق ٥/٢٦١ .

٢- «شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه»[١].

٣- «الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وتذكر الموت والبلى»[٢].

٤- «من يضمن لي ما بين لحييه ، وما بين رجليه ، أضمن له الجنة»[٣].

٥- «لا يحلف أحد عند منبري هذا على يمين آثمة ، ولو على سواك أخضر إلا تبوأ مقعده من النار»[٤].

هذه أحاديث بها كنايات عن موصوف جاءت فى جميعها تقوي المراد وتؤدي الغرض : الأول : صاحب القرن كناية عن إسرافيل عليه السلام ، وذكره بهذه الصفة يتسق مع الغرض العام وهو الإخبار بقرب الساعة ، ويقدم صورة نابضة فهذا ملاك موكل بالنفخ أدرك قرب الساعة فالتقم قرنه مسرعا ، ثم تحول إحساسه فى أذنيه فما هو إلا أن يسمع الإذن حتى ينفخ فيه .

والثانى : ذو الوجهين ، كناية عن المنافق يظهر خلاف ما يبطن ، فكأن له وجهين يقابل أعداءه بوجه وأحباءه بوجه آخر ، ولقد قام «ذو الوجهين» مقام المنافق المتلون دليلا عليه ، وتقبيحاً له ، وتبريرا للجزاء .

والثالث والرابع : فيهما كنايات عن أعضاء لها خطرها فى اقتران الآثام ، وكأنما كانت الكناية ما يقمع هذه الآفات : البطن و ما حوى - ما بين لحييه - ما بين رجليه سترا ونفوراً وتحذيرا ، ثم إيحاء وتأثيرا .

والحديث الأخير : فيه تحريم اليمين الآثمة عند منبر النبى عليه السلام ولو كان على سواك أخضر كناية عن الشيء لا بال له ، مبالغة فى القلة وتصويرا يوحى بأن من كذب فى يمينه على شيء تافه عند هذا المكان المقدس ، إنما هو زهيد النفس فارغ القلب تخويفا وتعليما .

---

(١) التاج الجامع ٣/٤١٦ .
(٢) المرجع السابق ٥/٥٩ .
(٣) المرجع السابق ٥/١٨٣ .
(٤) المرجع السابق ٥/١٧٩ .

والكناية عن موصوف لا غناء فيه تكثر فى البيان النبوى كالحديث :« لقد أتت عليَّ ثلاثون من بين يوم وليلة ومالى ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شىء يواريه إبط بلال» كناية عن القلة غير الكافية بيانا للصمود فى سبيل الله ، وحديث « إن ربكم حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفرا»[1] كناية عن الحرمان ، بل هو كريم وهاب . .

كما تعالت تعبيرات نبوية كناية عن القلة ، أو الصغر ، كوزن الذرة[2] أو شعيرة[3] أو برة[4] أو حبة خردل[5] أو مثقال حبة من خردل[6] كما اشتهر فى الكثرة :« ولو كان مثل زبد البحر »[7] « ولو كانت مثل قراب الأرض »[8] « ولو كانت كنجوم السماء »[9] إلى غيرك ذلك .

الكناية عن نسبة :

ولن نجد الكثير من هذا النوع في البيان النبوي ونورد هنا ما أورده الزمخشري مثلا قال رحمه الله « يقال أنا فى جنب فلان وجانبه ، وناحيته » وفلان لين الجنب والجانب ، ثم يقول : وهذا من باب الكناية لأنك إذا أثبت الأمر في مكان الرجل وحيزه فقد أثبته فيه ألا ترى إلى قوله :

إن السماحة والمروءة والندى . . . فى قبة ضربت على ابن الحشرج

ومنه قول الناس لمكانك فعلت كذا يريدون لأجلك ، وفى الحديث الشريف « من الشرك الخفى أن يصلى الرجل لمكان الرجل »[10]

والكناية هنا واضحة لا لبس فيها . .

---

(١) التاج الجامع ١١١/٣
(٢) المرجع السابق ٣٢/٥
(٣،٤) المرجع السابق ٤٤/١
(٥) المرجع السابق ٢١٦/٥
(٦) المرجع السابق ٢٢٢/٥
(٧) المرجع السابق ٥/ ٨٧
(٨) المرجع السابق ١٥٨/٥
(٩) المرجع السابق ٣٨١/٥
(١٠) انظر : الكشاف ١٠٦/٤

التعريض :

خرج النبى ﷺ يوما وهو محتضن لأحد الحسنين فقال لهما : « إنكما لمن ريحان الله ، وإن آخر وطأة وطأها الله بوج »[1]

والريحان له معنيان : الرزق أو النبت المعلوم ، وقد جعل الشريف الرضي رحمه الله فى « ريحان الله » استعارة على المعنى ، الثاني ، فالولد بمنزلته لأنه يستلذ ويشم ريحه ويستروح إلى استنشاق عرقه ، ولم يطق المحقق مع وجود طرفي التشبيه .

وجعل فى « إن آخر وطأة وطأها الله بوج » إيجازًا بالحذف ، أي وطأها جند الله أو رسول الله بوج ، ثم جعل الكناية فى التعبير بالوطء عن الوقعة ؛ لأن العرب تكنى عن الوقعة أو الحال الشديدة بالوطأة[2].

والمراد أبعد من هذا بكثير اكتشفه ابن الأثير رحمه الله بذوقه وحسه ، فجعله من خفي التعريض وغامضه قال : « والمراد التأسف على مفارقة أولاده ، لقرب وفاته ، لأن غزوة حنين كانت فى شوال سنة ثمان ، ووفاته ﷺ كانت فى ربيع الأول ، من سنة إحدى عشرة ، وبينهما سنتان ونصف ، فكأنه قال : إنكما من ريحان الله ، أى من رزقه ، وأنا مفارقكم عن قريب ، إلا أنه صانع عن قوله « وأنا مفارقكم عن قريب » بقوله « وإن آخر وطأة وطأها الله بوج » وكان تعريضا بما أراده وقصده من قرب وفاته ﷺ »[3]

وعند العلوي نجد هذا التعريض ، وهو المعنى الحاصل عند اللفظ لا به فيما وجدناه عند ابن الأثير ، وبينما يكتفي ابن الأثير بحمل الريحان على الرزق ولا يلمح فيه شيئا نجد العلوي يجعله من قبيل التعريض أيضا ، فيقول :

---

(١) انظر : المجازات النبوية : ص ٦٢

(٢) المرجع السابق : ص ٦٢ ، ٦٣

(٣) المثل السائر : ٣/٧٤

«وضع قوله» إنكما من ريحان الله «موضع الشفقة والحدب ، والعطف عليهما وإعظام المنزلة عنده لهما فعرض به عن ذلك ـ ثم يقول : فكأن قال : إنكما لمن رزق الله الذى يستراح به ، وتقر به النفس ، وإنى مفارقكم عن قريب ، فانظر إلى هذا التعريض ما أحسن مغزاه وأدق في البلاغة مجراه»[1]

ونضيف هنا :

إن التعريض لما كان من أدق الألوان البيانية ، وأخفاها ، لأنه لا يفهم من اللفظ أو العبارة ، وإنما يفهم من أمور خارجية عنها تعين المراد كان لا يقصد إلا في خطير الأمور ، وفي هذا الحديث كأنما كان النبي ﷺ يقرأ من الغيب ما سيلقاه سبطاه عليهما السلام من أذى وبلاء ، فجاءت هذه الجملة « إنكما من ريحان الله» تعريضا بالحنو والعطف ، وتعريضا بما سيلقياه من أذى ، أليس البلاء على قدر المنزلة ، وأكثر الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، وتكون المناسبة قوية بين هذا التعريض والتعريض بعده بقرب وفاته ﷺ ، وهو وداع فيه أسى خفيف لمفارقته أحبابه وأصحابه ، وما كان لرسول الله ﷺ أن يصرح بقرب وفاته ، فهو لم يؤذن بذلك ، وله أن يعرض ليفهم الخاصة ، أولو الألباب كأبي بكر رضي الله عنه حين سمع رسول الله ﷺ يقول في إحدى خطبه « إن الله خير عبدا بين الدنيا وما عنده ، فاختار ذلك العبد ما عند الله»[2] فلقد بكى أبو بكر وأدرك خافي التعريض وحده ، وأن الرسول الحبيب نعى نفسه إليهم ﷺ .

* * *

(١) انظر : الطراز : ٣٨٩/١

(٢) التاج الجامع : ٣٠٦/٣